المدرسة الوضعية

تعتبر النظرية الوضعية من أهم النظريات السوسيولوجية الكبرى في تاريخ الفكر الغربي، حيث أحدثت قطيعة ابستمولوجية مع التصورات الخرافية والميتافيزيقية من خلال تبني التجريب العلمي منهجا في جمع الحقائق خاصة في مجال علم الاجتماع الذي أصبح علما مستقلا بظهور إميل دوركايم، وعليه تعتمد الوضعية على الاختبارات الحسية والتفكير المادي والحياد في البحث والتجريب العلمي.

1- تعريف المدرسة الوضعية:

تمثل إحدى النظريات الاجتماعية التي ترى أنه في مجال العلوم الاجتماعية كما في العلوم الطبيعية، فإن المعرفة الحقيقية هي المعرفة التي تشكل البيانات والمعطيات المستمدة من التجربة الحسية والمعالجات المنطقية والرياضية بمثل هذه البيانات والمعطيات، والتي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية وخصائصها والعلاقات بينهم، والتي يمكن أيضا التحقق منها من خلال الأبحاث والأدلة التجريبية.

وإن الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت هو من وضع هذا المصطلح في القرن التاسع عشر معتقدا بأن العالم سيصل إلى مرحلة من الفكر والثقافة تنفي كل القضايا الدينية والفلسفية، وسوف تبقى القضايا العلمية التي أثبتت بالحس والخبرة الحسية، وفي ذلك العصر سوف يمحى الدين من ساحة المجتمعات البشرية.

كما تهتم المدرسة الوضعية بإجراء الأبحاث الكمية من خلال الاعتماد في دراساتها للظواهر الاجتماعية على تصميم استبيانات بحثية بهدف إجراء البحث على عينة كبيرة من الناس واستخراج النتائج بصورة سريعة يمكن في مجالات أوسع من المجتمع.

والنظرية الوضعية هي نظرية ترتكز على مجموعة من المقومات النظرية والمنهجية كالانطلاق من الإحساس وحده باعتباره مصدرا للمعرفة الاجتماعية، والاعتماد على النموذج الطبيعي على أساس أنه سلطة مرجعية للعلوم الإنسانية، وإخضاع الظواهر الاجتماعية للفحص والتجريب.

2- نشأة المدرسة الوضعية:

تعود أصول المدرسة الوضعية إلى مجموعة من الروافد الفكرية والفلسفية الأوروبية تأثر بها مؤسس هذه المدرسة اوغست كونت، ومن أهم هذه الروافد ما يلي:

أ- **المدرسة التجريبية:** استمدت المدرسة الوضعية في القرن 19 القواعد والتصورات المتعلقة بالموضوع وبالمنهج أيضا من البيولوجيا، فعلى مستوى الموضوع اعتمدت على نموذج التطور البيولوجي متخذة منه إطارا نظريا في دراسة التطور المجتمعي وعملت من خلال ذلك على الكشف عن قوانين التطور.أما على مستوى المنهج فاقر أنصارها بأهمية التجربة المعملية وقواعد التجريب، إلى أن لا احد استطاع أن يجد نموذج التجربة الذي يمكن أن يطبق في دراسة الظواهر الاجتماعية وبالمقابل كانت المقارنة هي البديل المنهجي للتجربة.

ب- **الفكر الاجتماعي الأوروبي:** ومن أهم من تأثر بهم أوغست كونت المفكر الفرنسي **هنري سان سيمون** رائد الإصلاح الاجتماعي في نهاية القرن 18 ومطلع القرن 19، إضافة إلى مجموعة من المفكرين الاجتماعيين الأوروبيين أمثال توماس هوبز وجون لوك ومونتسكيو صاحب كتاب روح الشرائع.

3- مبادئ المدرسة الوضعية: تقوم المدرسة الوضعية على عدد من المبادئ تتمثل في ما يلي:

- **النزعة الواقعية:** تؤكد الوضعية على فكرة الواقع الموضوعي والحقائق المطلقة.

- **التجريبية:** ترى المدرسة الوضعية أن الخبرة الحسية هي مصدر المعرفة.

- **الكمية:** تدعوا الوضعية إلى التركيز على قيمة الدقة والإتقان والقياس.

- **الموضوعية:** من خلال استبعاد الذاتية من سيرورة البحث العلمي.

- **الحيادية:** من خلال الفصل بين الحقائق والقيم والابتعاد عن المثالية.

- **معارضة العقلانية :** تعارض الموضوعية الفكرة التي مفادها أن العقل مصدر للمعرفة لذالك فهي تعتقد أن الواقع هو مصدر المعرفة.

- **وحدة المنهج:** تزعم المدرسة الوضعية أن مناهج البحث في العلوم الطبيعية تنطبق أيضا على العلوم الاجتماعية والانسيابية.

- **الاستدلال والاستقراء:** تستخدم الوضعية تصميما يرتكز على الاستدلال لينتج تعميمات استقرائية.

- **الحتمية:** ترى المدرسة الوضعية بان العالم محكوم بمبدأ الحتمية، ويخضع لقوانين سببية صارمة وإذا ما اكتشفت هذه القوانين يمكننا التنبؤ بالحياة الاجتماعية والتحكم بها.

- **التصميم:** تستخدم الوضعية تصميما صارما معدا صنفا قبل الشروع في البحث.

4- رواد المدرسة الوضعية: سوف نتعرف في مايلي إلى أهم المفكرين الذين ينتمون للمدرسة الوضعية وهما الفيلسوف أوغست كونت وأستاذه سان سيمون

4-1- سان سيمون:(1760-1825) مفكر وفيلسوف فرنسي

يعد سان سيمون من ابرز رواد النظرية الوضعية، كان يؤمن بالعلم والعلمانية والتقدم والازدهار وإخضاع الإنسان للتجريب الوضعي.

دعا إلى تطبيق المنهج الفيزيولوجي على علم الاجتماع وسماه بالفيزيولجيا الاجتماعية، أي تأسيس علم جديد يدرس الإنسان في المجتمع، هو علم الاجتماع أو ما يسمى عنده بالفيزيولوجبا الاجتماعية حيث تسعى هذه السوسيولوجية الى دراسة الظواهر المجتمعية مثل العلوم الطبيعية بالاعتماد على الملاحظة العلمية، ودراسة الوظائف العضوية التي تؤديها هذه الفيزيولوجيا الاجتماعية.

فسان سيمون هو أول من قدم تصورات علمية حول الظواهر المجتمعية في بداية القرن 19 ميلادي ثم بعد ذلك طورها اوغست كونت وعمقها في إطار تصور علمي ووضعي، ما يعني هذا أن سان سيمون هو في الواقع المؤسس الأول لعلم الاجتماع في مفهومه الغربي.

وعليه يعد سان سيمون من رواد السوسيولوجية الوضعية عندما ثار على الفكر اللاهوتي وتمسك بالعلم في دراسة علم الاجتماع على غرار العلوم الطبيعية، حيث أن التحول من التفكير اللاهوتي إلى التفكير العلمي الوضعي حسبه هو أمر واقعي يتفق مع السير العام لتقدم العقل الإنساني، فهو ليس ظاهرة تاريخية فحسب يعبر عن المراحل التي قطعها العقل الإنساني بل هو ضرورة من ضروريات هذا العصر وهكذا فان وظيفة علم الإنسان ستكون متعارضة تماما مع الوظائف القديمة التي تؤديها المعرفة اللاهوتية أو الفلسفية، أي أن هذا العلم لن يكون أبدا من وظيفته اضطهاد الفكر وإبعاده عن المشاكل الواقعية.

وخلاصة يمكن لقول بأن سان سيمون أسس علم الاجتماع على المبدأ العلمي الموضوعي والتجريبي، مع استلهام العلوم الطبيعية، وتجاوز الفكر اللاهوتي الكنسي.

4-2- اوغست كونت: (1798-1857) مفكر وعالم اجتماع فرنسي

يعد اوغست كونت من رواد المدرسة الوضعية، ومن أهم السوسيولوجيين الذين تبنوا منهج التفسير في دراسة الظواهر الاجتماعية وفق أربعة إجراءات أساسية وهي الملاحظة، التجربة، المقارنة والمنهج التاريخي، مؤكدا أن الملاحظة أو استخدام الحواس يمكن تنفيذها بنجاح إذا وجهت عن طريق نظرية، أما عن التجربة فأدرك كونت بأنها تكاد تكون مستحيلة في دراسة المجتمع لذلك أكد إمكانية عقد المقارنات التي تعيش معا زمنا بعينه، وبين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد، وبالنسبة للمنهج التاريخي فيمثل عند كونت البحث عن القوانين العامة للتغير المستمر في الفكر الإنساني.

أ- قانون المراحل الثلاث عند كونت: يتمثل فيما يلي:

- **المرحلة الدينية أو اللاهوتية:** في هذه المرحلة كان الإنسان يفكر بطريقة خيالية وأسطورية وخرافية ودينية، وكان يفسر ظواهر الطبيعة وفق قوى خفية مصدرها الأرواح والشياطين والعفاريت والآلهة، ولم يكن هناك اعتراف بالحتمية التجريبية أو العلمية.

- **المرحلة الميتافيزيقية:** انتقل الإنسان في هذه المرحلة من الخيال إلى اللوغوس والفكر المجرد، وبدأ يهتدي بالتأمل الفلسفي واستخدام العقل والمنطق والاستدلال البرهاني. وتواكب هذه المرحلة فترة الفلسفة اليونانية حتى القرن 19م.

- **المرحلة الوضعية:** في هذه المرحلة تجاوز العقل الإنساني مرحلة الخيال والتجريد وبلغ درجة كبيرة من الوعي العلمي والنضج التجريبي حيث أصبح التجريب أو التفسير منهج البحث العلمي الحقيقي، وهي أفضل مرحلة عند كونت.

ب- قسم كونت علم الاجتماع إلى قسمين:

- **قسم ستاتيكي:** يدرس الظواهر الاجتماعية في حالتها الساكنة والثابتة والنسبية كدراسة النظام الأسري والنظام التربوي والنظام السياسي... ويطلق عليه تسمية الستاتيكا الاجتماعية.

- **قسم ديناميكي:** يدرس التغير وحركة المجتمع عبر السيرورة الزمنية أو التصور الديناميكي والتاريخي، ويسمى بالديناميكا الاجتماعية.

✓ وصنف كونت العلوم إلى ستة مجموعات وهي:

الرياضيات، الفلك، الفيزياء، الكيمياء، علم الحياة وعلم الاجتماع

فالرياضيات مفتاح العلوم جميعا، أما علم الاجتماع فهو آخرها وتاجها جميعا.

ج- نقد أوغست كونت: هناك العديد من أوجه القصور التي عانى منها أوغست كونت أهمها ما يلي:

- اهتم كونت بتفصيل برنامج لعلم الاجتماع أكثر من اهتمامه بإقامة نظرية سيسيولوجية ولذلك فإنه لم يقدم رؤية متكاملة واضحة ذات مفاهيم واقعية، كما أثبتت العديد من البراهين خطأ كبيرا في افتراضاته.

- تصور كونت الإنسانية كيانا متجانسا يخلو من الاختلافات ولم يراعي النسبية الزمانية والمكانية لكل مجتمع ولذلك كان قانون المراحل الثلاث الذي اقترحه اقرب إلى التأمل الفلسفي الذي انتقده.

- ركز كونت على قضايا النظام والاتساق والتضامن والمحافظة، وأهمل الصراع والتناقض الذي يحدث في المجتمع.

- جاء تقسيمه للعلوم قاصرا، فقد أهمل عددا كبيرا من المعارف والعلوم التطبيقية وأيضا العلوم الإنسانية، كما اظهر تعصبا واضحا لعلم الاجتماع.